

التاريخ وإعادة التاريخ للمسلمين المعثمانيه والبرقانيه

بشاره بوماني

قسم التاريخ - جامعة بسلامانيا

إن النظر في التاريخ المكتوب عن المسلمين والدمعة إلى إعادة اكتشافه هما تطبيقان واسما الانتشار خصوصا في الغرب، إلا أنهما في تصوري على الأقل تطبيقان خاملتان ومخلتان. وأنا أختلف معها على مصيبتين: من ناحية فالتطبيقان يركزان على تصور مثالي التاريخ كعمل للمعرفة، حيث أنهما يقترضان أمورا كوجود تاريخ موضوعي، وموضوع غير منحاز، وارتضية حماية خارج نطاق السياسة. ومن ناحية أخرى، فالتطبيقان غير مكافئين أو متكملين كليا. فالنوع الصهيوني في كتابة التاريخ غالبا ما حدد مضامين الجدل القائم، وبشارك النوع الفلسطيني في عدد من الانتراعات كان من شأنها تحديد ما هو مهم للدراسة وما هو عديم الأهمية. ونتيجة لذلك، تم إلى حد كبير إغفال النواحي الاجتماعية والاقتصادية من تاريخ فلسطين، ورغم توتر المصادر الغربية، ما زالت تعاني من جهل عميق حيال الأربعةائة سنة التي سبقت فترة الانتداب البريطاني. وعليه، فإن مقالات تاريخ فلسطين في القرن العشرين تنفق إلى السياق والمق، وتتهج على مستوى سرد الاحداث دون التطرق إلى الاسباب.

*

إن المصطلحين "اكتشاف" و "إعادة اكتشاف" يمكن أن يكونا مقلبين لدى استخدامهما في وصف عملية كتابة التاريخ. فمصطلح "اكتشاف" يوحي بأن التاريخ كائن محدد يمكن البحث عنه واستيعابه واخضاع أسواره من خلال أساليب موضوعية. أما مصطلح "إعادة اكتشاف" أو التصديل فغالبا ما يهتمان بإتباع امتداد لهذه العملية وليس تقدا لها. وبخياره أخرى يمكن إعادة تقييم هذا الكائن وعرضه كنتيجة لتراكم المروية عوضا عن تجاوز أسلوب المالمجة التابع نفسه. وهذا ما أسماه تعديللا مقبلا، وهو تعديل لا يتطرق إلى سياق البحث التاريخي، وإنما يقتصر على ترتيب التفاصيل ومراثلن التركيز. وغالبية الأعمال التي اشتهرت بأنها تمثيلية، تقع في هذا الإطار. وبمسوق ذلك على الدراسات التي تنتظر بقارغ الصبر الإوراج عن الوثائق الحكومية السرية إعادة تفسير هذا

يطلع طلف هذا المدد من أفاق فلسطينية هذه القضية ، من خلال محاضرات المؤتمس الذي عقدته جامعة بيرزيت حول تقضايا البحث العلمي والتفكر في الأراضى المحتلة . وبيت القصيد الذي يجمع بين هذه المساهمات هي : يجب أن لا نسمح لعملية " تطبيع القمع " الذي نتواجهه في بلادنا، أن يشكل غطاء لإنتاج تفكري سقيم يخفي وراءه شعار "الالتزام الوطني" .

س.ت.

الإيجل والبقايا الأثرية من أجل إيضاح، وتفاصيل كثيرة، الأهمية في فلسطين النبتية. وفي اعتقاده أن تاريخ فلسطين توقف مع "القرن" العربي عام ١٢٤م ولم يستأنف إلا في حملة نابليون عام ١٧٨٨م باستثناء فترة الحروب الصليبية القسيرة التي تخللت ذلك. وبإكاد يأتي الكتاب على ذكر ثلاثة عشر قرناً من الاستيطان المتواصل للسكان الفلسطينيين العرب. ويأتي ذكر ذلك فقط للتأكيد على النزلة الدنيا والاعلامية التي يتميز بها الشرق بالمقارنة مع الغرب (٢).

إن القدرة الدامغة لاكتشاف الأرض دون اكتشاف الناس، تناخلت بشكل متقن في الرواية الصهيونية المبكرة. فبالنسبة للصهاينة بدأ تاريخ فلسطين الحديث في الثمانينات من القرن التاسع عشر مع وصول طلائع المستوطنين اليهود. وكان شعارهم المشهور "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" مظهراً وجزءاً من شبكة فكرية أوروبية أوسع، تحوزها قومية شوفانية واستلاء عرقي ومطامح استثمارية.

وبالضبط لأن الفلسطينيين رفضوا ببناء الاختفاء عن مسرح العالم، فإن شعار الصهاينة يزداد سخريه كلما ذكر ذكره، ومع ذلك فهو موضوع متكرر في كتابه تاريخ فلسطين من قبل الصهاينة. وكتاب جوان بيترز من فجر التاريخ: جود الصراع العربي اليهودي على فلسطين (١٩٨٤) (٣) الذي يمكن تلخيص طرحه بكلمات جولدمانير "ليس هناك شيء اسمه شعب فلسطين" يمثل أحدث مثال على ذلك (٤). وأهمية هذا الكتاب تتيج ليس من جراحة التعريف الفصيح في الاستقبال الذي أحززه في الولايات المتحدة (٥). إذ أنه مصدر عن دار النشر هاربروند وزين بتوصيات مشرفة من بعض أهم المفكرين المتقنين في البلاد، كما رحبت به دار النشر الكبرى كعمل تمثيلي مؤثيق. وبالتركيزات في المقدمة عن عدم التحيز واسطول من الإحصائيات "الوثوقية" والعائق "توهل الكتاب للتصور التالي التاريخ الموضوعي" الذي يسود في الأوساط الأكاديمية في الولايات المتحدة.

برز في النصف الأول من القرن العشرين وخاصة خلال فترة الانتداب نوع جديد من كتب التاريخ يعالج النواحي القانونية والإدارية والسياسية الفلسطينية المعاصرة. ويمكن ذلك بشكل جزئي السرعة البليغة التي شقت بها العلم الاجتماعية طريقها إلى كتب التاريخ، ولكن كان سرد ذلك بشكل أعمق إلى حقيقة أن البريطانيين كانوا يراجون المهمة المسيرة للسيطرة على الفلسطينية.

التفصيل أو ذاك لسياسة مبنية بدون إعادة تجميع قلمي للاتراعات التي تقف وراء هذه السياسة أو كيفية ظهورها في المكان الأول.

لا يستطيع المؤرخون فصل أنفسهم عن الموضوع اللتين لم يصدده. ويعتقد ما يكشفونه على الشيء الذي يبحثون عنه، كما أن الأجرية التي يتوصلون إليها تعتمد على الأسئلة التي يطرحونها لأنفسهم. ويتنظر على المؤرخين التعميليين أن يشتتوا وراء حاجز الموضوعية وعدم التحيز لأن عليهم أن يبيضا الأسباب التي دفعتهم لاختيار موضوع بذاته، وفترة زمنية معينة، ومسألة محددة، بالإضافة إلى أسلوب البحث ومصادره المختلفة. وعليهم بالقرن الممكن إيضاح البداية، التي تتعلم البحث والاتراعات التي يرتكز عليها (أي نقطة الانطلاق) إضافة إلى اعتبار جهودهم كمحارة الإبداع والتحليل، وليس لسرد الأحداث والتوثيق.

وأخيراً يتضمن مصطلح "اكتشاف" السمي وراء المروعة بعيداً عن الأناجية. نميز أن اكتشاف التاريخ الفلسطيني - مثل اكتشاف أفريقيا واكتشاف القمر - كفاح متجدد النواحي بين اثنين غير متكافئين وتضمينات اجتماعية وأيديولوجية وسياسية واسعة.

*

تميز القرن التاسع عشر بالنسبة للأوربيين بأنه عصر الاكتشاف يبرز نماذج. حيث امتلأت أعمال التاريخ عن فلسطين خلال هذه الفترة وحتى مدة قريبة بكلمات الرحالين الأوربيين، وتقارير المستقررين إضافة إلى نشرات "مستشرق اكتشاف فلسطين" والإحصائيات المتابعة بالوزارات والمصادر. وكان الاتجاه السائد هو الجغرافيا التاريخية والذي يعد كتاب الجغرافيا التاريخية للبلاد المقسمة (١٩٨٤) للمراف جورج آدم سميت مثالا بارزاً عليه. وقد أصبح الكتاب بفضل دقته واعتماده على ترحال الكاتب المكثف وملاحظاته الشخصية عملاً كلاسيكياً. وقدم سميت الذي كان يشمل يومئذ منصب نائب رئيس جامعة أيرلين خراطم بالغة الدقة بحيث اعتمدها الحكومة البريطانية في رسم حدود الانتداب عام ١٩٢٢.

كانت فلسطين في نظر سميت مرادفة "البلاد المقسمة"، حيث اعتقد في كتابه على

* النزاة الفلسطينيون البلاد... نقلوا في إثارة ثقافة جديدة في ذلك الجزء من مناطق نفوذهم. فقد انشئ السكان العرب خلال قرون من الانتال، وفلسطين... أصبحت أيضا مهلة في منقى عن الاتجاه الحضاري: العكسي والمادي* (٧)

ولكنها الصورية، يجادل بتقوش بأن الاستعمار اليهودي من شأنه أن يجلب النرد إلى أرض يسودها الطغيان والفسق والفرخ الاخلاقي.

وتلخص الانتراجسات الثلاثة الرئيسية لتبع المؤلفات التاريخية العربية عن المسلمين في الرحلة التالية، والاصال الصهيونية جزء لا يتجزأ منها، في الامور التالية. أولا، في تعريفه للفلسطينيين على أنهم عرب إنكر عليهم خصومية ثقافتهم وتجزيتهم التاريخية الجماعية. ثانيا، من خلال تصويرهم كخصما سلبيين للسيطرة العثمانية، فقد جردهم من تراثهم في الحكم الذاتي والتطور الاجتماعي والاقتصادي الوطني. ثالثا، من خلال التاكيد على انحطاط وتغلف الامبراطورية العثمانية ووصفه للفلسطين بأنها خارج نطاق الحضارة فقد عرف التاريخ الفلسطيني على أنه عديم الامة، جامد، ويستحق الدراسة فقط بعد وصول اليهود الدييمكين (٨).

*

بالنسبة للفلسطينيين، تمثل اكتشاف تاريخ فلسطين في البحث عن الهوية. حيث كانوا آخر من بدأ يكتب عن تاريخ فلسطين لأنها لم تكن موجودة كوحدة سياسية قبل معاهدة ساكس بيكس عام ١٩١٦. وسابقا على ذلك التاريخ، كانت فلسطين جزءا من بلاد الشام أو سوريا الكبرى، وتراثها المؤلفات التاريخية المكرة في هذا السياق (٩). علاوة على ذلك، كانت فلسطين في غالبيتها الساحة مجتمعا لللاحق الذين كان معظمهم أميين ويقتنون إلى أرباط محلية وقطرية. ومع أن ثقافة فلسطينية وانماجا إجماعية وسياسة مميزة كانت سائدة لا سيما في منطقة الجليل والبالس والقدس وحيال الخليل، إلا أنه لم تكن هناك طبقة رأسمالية برجوازية قوية تتبنى منهجية قوية واضحة. وأخيرا كانت البنية التحتية والسوق للنشر وتوزيع مؤلفات علمية مسهبة في أواخر القرن التاسع عشر ما تزال في مهدها، وكانت المناهذ الرئيسية تقتصر على الجرائد والشمرات والكاتب

والصهيانية، وبالذات مهمة تسهيل وانضمام القرعية على قيام المستوطنات في بيئة غير مأهولة وعملية.

وبما أن الطريف المعاصرة كانت موضوع الاهتمام الرئيسي، فقد تم صياغة سلسلة الانتراجسات المتلفة بتاريخ العربي الإسلامي في قالب جديد ولم يتم التحلي عنها. وصود البريطانيون أنفسهم بالجهة المحايدة التي تقوم بالمصاية والتي أخذت الحضارة والثقافة وندوسا في الليمقراطية إلى بلد مختلف، ومن ثم، وبسبب العداء العربي اليهودي، اضطرنا لعارة المكان غير مشكورين. كما زعم الصهاينة بأنهم جلبوا الازدهار والنمو الاقتصادي إلى أرض قاحلة وجعلوا الصحراء تزدحم.

ولدراسة قاتني فيرنز اندروزن البلاد المقسمة تحت الانتداب (١٩٢١) التي تقع في جزأين تشير إلى هذا الانتقال من الجغرافيا التاريخية إلى التاريخ المعاصر. ويتالف الجزء الأول من وصف لرحلات شخصية تهدف إلى إجراء مسح للبلاد والفتات الدينية المختلفة والوطنيين البريطانيين. أما الجزء الثاني فهو دراسة شاملة للمطالب والنشاطات الفلسطينية والصهيونية في إطار المسؤوليات البريطانية. القانونية تحت الانتداب.

وتصود اندروزن بريطانيا العظمى على أنها الطرف الثالث الحاد الذي وجد نفسه في وضع متناقض ومستحيل، وبذلك تحجب الحقيقة بأن السياسة الاستعمارية البريطانية كانت النوع الراقسي الذي تزعمت في طله بولة اسرائيل المستقبلية، كما أوضح ذلك وليد الخالدي ببنطق بليغ (١٠).

وتشمل الكتابات التاريخية الصهيونية خلال فترة الانتداب في كتاب نورمان بتقوش فلسطين (١٩٢٤) وهو الكاتب الصهيوني التحمس الذي استغل منصبه كمدعي عام فلسطين ١٩٢٢ - ١٩٢١ لوضع الأساس القانوني للولاية اليهودية. وبعد أن ترك الإدارة البريطانية تم تعيينه أستاذًا في العلاقات الدولية في الجامعة العبرية في القدس. ويختم فصله عن التاريخ العربي الفلسطيني بالفقرة التالية:

الأكاديمي، بل اقتصر على شخصيات بارزة بشكل عام ونشطاء سياسيين بشكل خاص.

فالزائون أمثال عيسى السفوي (١١)، يوسف هيكل (١٢)، وديع الاستاني (١٣) كانوا مهمكين في الحركة القومية عندما كتبوا أطروحات سياسية مفصلة لإظهار وجهة النظر الفلسطينية. ويصدق نفس الشيء على الذين تلوهم أمثال اميل القزوي (١٤)، محمد عزت دوزوه (١٥)، صبحي ياسين (١٦)، أكرم زعتر (١٧)، ناجي علهوش (١٨)، وعبد الهادي الكاكي (١٩).

تتوال هذا الاتجاه منذ البداية المتضامين الصهيونية في ثلاثة أبعاد مهمة: السببية، الفترات الزمنية، ونظرة إلى الماضي خاصة الفترة المشائية. ويمن استثناء، يعرض هذا الاتجاه الحركة الصهيونية كإكمال ديتامكي، بينما يميز القارة الفلسطينية بأنها حتمية ومفسرة لنفسها وغير قابلة باستثناء ربما انتفاضة عام ١٩٢٩ وثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩. كما تتم معالجة طرفي النزاع ككتلتين جامعتين دون أبعاد اهتمام الصراع الطبقي والأيديولوجي الداخلي.

إن أرائيل الأعمال من هذا النوع الصهيونية (١٩١١) لنجيب نصاب. والمسألة الصهيونية (١٩١٢ - ١٩١٣) (٢٠) لصدد ربحي، التالي تمثل هذا الاتجاه في شركة الياناي. إذ تطلق المؤلفان تربيتهما في الغرب، وكانت لها تجربة مباشرة مع الحركة الصهيونية - ربحي التالي بصمته عضو برلمان في اسطنبول ومستشارا مقبلا للإمبراطورية المشائية في برنو - فرنسا، ونجيب نصاب كمرتكب سابق في المنتوق القومى اليهودي، ومحدد جريدة "الكومل" العربية الاكثر فعالية في معاراة الصهيونية. وكان هدف كتابيها التحذير من الأخطار التي تشكلها الحركة الصهيونية بدلا من بحث أو وصف تاريخ الشعب الفلسطيني.

ويحاول الانتداب، وسعت الدعوة إلى الحركة أقاتها، لتشمل بحث السياسة البريطانية والقاروة الفلسطينية. إلا أن الصهيونية وهي الموضوع السياسي الأهم في العالم العربي، تبقى بؤرة التركيز الرئيسية لهذا الاتجاه. فثالنية الأعمال تبدأ بشكل ثابت مع وصول أول المستوطنين اليهود في الثالنيات من القرن التاسع عشر، وأحيانا تغطي وصفا موجزا للبنية السكانية والإدارية الفلسطينيين المشائية عشية عملية الاستعمار. والحلقة التي تربط بين الفترة المشائية وفترة الانتداب - أي بين فلسطيني القرن العشرين وماضيمهم - تكون مفقودة. حيث يلاحظ أنه يبذل جهد قليل لوضع

الدرسية القروية والجلات.

عندما اتخذ نشر الأطروحات التاريخية شكلا جديدا في بداية العشرينات، كان الانتاج مكثفا وبتنوعا وحظيا إلى درجة أن كل الاتجاهات المهمة في كتابة التاريخ الفلسطيني في الوقت الحاضر، باستثناء المقالات الصهيونية، يمكن أن تدرى إلى فترة الانتداب. وقد أطلقت على الأنواع الثلاثة الأهم منها "الدعوة إلى الحركة" و"التماس المل" و"التأكيد على الهوية".

"الدعوة إلى الحركة" تعود لروايات سياسية لواقعين أمثال نجيب نصاب، عيسى السفوي، إميل القزوي، وعبد الهادي الكاكي، تتود حول الصهيونية، والسياسة، والقاروة الفلسطينية في عهد الانتداب. أما "التماس المل" فيمثل أعمالا كتبت باللغة الإنجليزية من قبل فلسطينيين تلقوا تثاقفهم في الغرب، أمثال جورج أنطونيس، عبد اللطيف الطيلوي، وليد التالي، وأوارد سبيد، وكانت موجهة بشكل خاص للقراء الأوربيين والأمريكيين. وأخيرا "التأكيد على الهوية" وهو أكبر وأهم الأنواع الثلاثة. حيث قام مؤلفون أمثال احسان النسي، أحمد سمح الخالدي، عازف المارزف، مصطفى مراد النياغ، ونسر سرحان بكتابة تاريخ مندمهم، وثقروا الوثاكوكر القروي، ونشروا موسوعات عن حياة شخصيات فلسطينية وأخرى تاريخية، إضافة إلى دراسات عامة أخرى. وتتضمن هذه الكتب أيضا من الملومات المنتوعة منذ فجر التاريخ وحتى الوقت الحاضر بهدف إقامة الدليل على جذر الشعب الفلسطيني وبعروية فلسطين.

يجب أن نتذكر أن هذه الاتجاهات ليست مطامر أيديولوجية للبيانات الاجتماعية، وإنما يمكن النظر إليها على أنها تمثل عناصر مميزة داخل أوساط المثقفين القليلة نسبيا في الحضر. علاوة على ذلك، فإن غالبية هذه الأعمال لم تكتب على أيدي مؤرخين مدرسين أو أساتذة جامعيين، وإنما كتبت من قبل صحفيين ورحامين وسياسيين ومدرسين.

يتضمن الدعوة إلى الحركة عادة عنصران مكرلان لبعضهما: التسمية هذه المص وتبرير الموقف الملن. وفي البلدان التي يوجد فيها فصل في العمل بين الانتاج المتألفي والإدارة السياسية تصدر مثل هذه الأعمال عن جماعات منمنعة وضاعطة. وبالنسبة للفلسطينيين، فإن البنية التحتية مثل هذا الفصل في العمل ما زال في مرحلة الولادة (١٠). وحتى وقت قريب، لم يكن الكتاب من الرسط

الشرعية والتمتع بالنسبة للاظمة العربية - أدت إلى تنوع كبير في الأسلوب وعدم التوازن في النوعية. وفي أسوأ الأحوال، تضمن هذا النوع كبا تميزت بالشمولية والهجوم المنهجي، وأحيانا الشمولية الملغية. وهذه الكتب - التي يفك أن يكون مؤلفوها من المثقفين الذين يعدمون حكمة مميعة أو أخرى، أو التي صدرت عن جهات متبعية غير متسامحة كالإخوان المسلمين - تتبنى المقامين الصهيونية: بمعنى أن هذا ليس حراما فلسطينيا - إسرائيليا بل هو صراع عربي - يهودي أو إسلامي - يهودي بكل الأبعاد التاريخية والثقافية وبالتالي لهذا الموقف. وتسامم هذه الكتب في تحول غضب القراء عن الدولة والتناقضات الإجتماعية الداخلية، وتوجه الانتظار بدلا من ذلك إلى تحد أساسي أكبر. وعبارة أخرى فإنها أصوات السبيرة وليس المعارضة.

وأحسن ما تم إنتاجه من هذا الصنف بين ذلك، هو ما نشره فلسطينيون متشبثون إلى مؤسسات الأبحاث التابعة لنتظمة التحرير الفلسطينية، بالإضافة إلى مثقفين يساريين متعاطفين مع المنظمات الفلسطينية. وكتاب أسعد الرزوق اللطوم، والصهيونية (١٩٧٠) الصادر عن مركز الأبحاث التابع لنتظمة التحرير الفلسطينية، هو نق لاذع للمفادات غير الدقيقة والشمولية ضد اليهود والرسالت التاريخية حول الصهيونية التي تم نشرها في العالم العربي، حيث يفك الفخرافات حول اليهود وكثيرهم القسمة واحدة بعد الأخرى، وتتضمن قائمة بالكتب المنصرية التي يتحدثانها. ويستخدّم الكتاب أسلوبا بعيدا عن الدين، ويعرض مسحا تاريخيا لظهور الصهيونية كحركة سياسية وأصول اللاسامية الحديثة في العالم العربي.

وكتاب ناجي عاروش المألمة العربية في السطحين ١٩١٧ - ١٩٤٨ الذي صدر أيضا عن مركز الأبحاث التابع لنتظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٧ (٢٣) هو الأول الذي يفكس من جديد الجانب الفلسطيني من الملف، وذلك بالتميز بشكل واضح بين الجماهير من ناحية، والقادة من الناحية الأخرى. ويحاول عاروش بأن الربا والتذنب والانشقاق المنزني وقندان الثقة بالجماهير، هي السمات التي ميزت القيادة التقليدية، مما أدى إلى إعاقة وتقويض الحركة القومية الفلسطينية. ومع أنه يصور الجماهير بأسلوب عاطفي، ولا يستخدم تحليلا طبيا للمجتمع الفلسطيني، إلا أن كتابه كان بمستوى كاف من التفجير، بحيث تطلب من أنيس الصايغ - رئيس مركز الأبحاث تقديم الكتاب بكلمة اعتذارية.

الاستعمار الصهيوني أو الانتداب في الإطار الأوسع للتاريخ الفلسطيني، أو بحث الاتجاهات الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية وآثارها على السلوك السياسي الفلسطيني (٢١).

وكل الأعمال من نوع الدعوة إلى الحركة ثوريا، تشكل روايات سياسية لا تتطرق إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية ويحورها الرئيسي هو نشاطات السياسيين البارزين الرسمية في الحفس مثل الاجتماعات والتمترات وبيانات المواقف والمناقص وغيرها. ولا يتوفر دراسات حول التعتية السياسية والاتجاهات الأيديولوجية أو النشاط المناهض للاستعمار في المناطق الريفية باستثناء ثورة ١٩٢٦ - ١٩٢٩. والكثير منها لم يتم نشره. كما لا يتوفر أعمال تفصل الحياة الثقافية في المناطق غير الرسمي أو النشاطات الشعبية على مستوى الأحياء في المدن، أو تعالج الاختلافات العرقية والعطرية. ويمكن الانتراقص بثمان بانه لو كان في مقدر اللاجئين والمال والبنو في ذلك الوقت إنتاج أمروحات لكانت لدينا نظرة مختلفة إزاء التاريخ الفلسطيني خلال فترة الانتداب. ونظرا لأن غالبية المؤلّفين في هذا الاتجاه كانوا من النشطاء السياسيين، فقد اعتمدوا في مصادرهم على تجاربهم والمذكرات الشخصية. وقد ساعد ذلك في التفصيل والتمك في بعض المسائل، ولكن من ناحية أخرى كان له سببات تتمثل في الاعتزاز الشخصي والعميم وعدم الدقة. واعتمدت أعمال تالية بشكل رئيسي على تقارير الصحف ووثائق حكومية ونشرات، إضافة إلى المذكرات والبيانات السياسية.

وقد تسبب إتلاف عدد ضخم من الوثائق، والحاق أضرار أخرى بالأرشيف الصهيوني، في حرمان الفلسطيني من الوصول إلى المصادر المتنوعة الضرورية لإعداد الدراسات الأكيدة والشاملة. ومع ذلك فإن هناك بعض المصادر مثل سجلات المجلس الإسلامي الأعلى في شوقي القدس، والتاريخ المتناقل، لم يتم استخدامها بشكل فعال. كما لم يتم استخدام المصادر غير السياسية مثل سجلات المحكمة الشرعية، وبيات الموقف الإسلامي، وسجلات الزواج وغيرها، لإلقاء الضوء على أمور مهمة مثل الهجرة، التطور الاجتماعي، العلاقات الطبيعية، ونشاط الزواج (٢٢).

وبينما تكاثرت هذا النوع من التاريخ بعد عام ١٩٤٨، أصبح محصورا بيننا في القومية العربية تحت قيادة عبد الناصر، ومن ثم ظهور القومية الفلسطينية بعد عام ١٩٦٥. وأدت فعالية هذا التاريخ السرموي، كإداة للتعبئة الأيديولوجية للأحزاب السياسية العربية المختلفة، وكوسيلة

إن البنية الإدارية والانشاءات السكانية التي تم عرضها كمسودة جامدة وتتمسك على أريمية سعة من الحكم العشوائي، تجعل التكوين الاجتماعي والنظام الاقتصادي والحياة الثقافية والديناميكية السياسية للفعب الفلسطيني، لا توضع التغييرات التي حصلت مع مرور الزمن . وتخدم هذه المسودة في تكوير القارة، بأن شيئاً ما كان موجهاً قبل الصهيونية، ولكنها تترك الانطباع بأن هذا الشيء لم يكن قادراً على التطور أو الاستجابة للمؤثرات الخارجية .

كما أنه لا يتم التطرق إلى جذور القومية الفلسطينية لأن الاستنتاج المنطقي في هذا الإطار التحليلي هو أن القومية الفلسطينية هجين للقومية العربية (٤) ورد على الاستعمال الصهيوني . ويظل هذا الرأي قائماً دون تحد، رغم أنه لا يفسر المساس العميق للتضامن والهوية الفلسطينية التي عززت ملايين اللاجئين في المنفى، وساهمت في ظهور حركة قومية موحدة متمثلة في منظمة التحرير الفلسطينية.

منذ فترة قريبة فقط، بدأت إحيات جزئية في الظهور . فكتاب رندمباري الصانع الفلسطينيون: من فلاحين إلى ثوار (١٩٧٩) يشير إلى أمية المائة والحامالة وتضامن القوية بالإحصاء إلى حس تاريخي جماعي كساسة للتعليم الاجتماعي، ومصدر للهوية الذاتية لعشرات الآلاف من اللاجئين القراء الذين يقيمون في لبنان . ولكن ملامحتها محدودة من ناحية الزمان والكان . أما كتاب محمد صلح اصول القومية الفلسطينية (١٩٨٨) فهو من أوائل الكتب التي تبحث في الجذور العشوائية والأساس الاجتماعي القومية الفلسطينية من خلال عناصر نفسية حاكمة المناطق الحضرية الذين يشغلون مناصب . ولكن دراسته اسماء الحظ تقتصر إلى يطلق عليها لجهاء البحث المبكر في الفترة العشوائية بالإحصاء إلى أنها تثقل التعميمات المختصرة المألوفة في هذا الحقل دون أي نقد . يضاف إلى ذلك أنه يتركز على فئة اجتماعية ضيقة، فإنه يرفض صورة ضيقة لكليات القومية.

ولكن مشكلة الكيالي الأساسية في نظره على أن الوراء العشوائية كانت انقطاعية وخطائة وطالة . ونتيجة لذلك، فهو يدعي بأن فلسطين في العهد العشوائي كانت تتميز بسيطرة عدد قليل من العائلات الملائكة للأراضي الفاسدة على جماهير الفلاحين الفقراء والمخالفين . ويضع اللوم في ذلك على قانون الأرض العشوائي لعام ١٨٥٨ الذي سمح بالأكية العائمة وامتلاك أراضي شاسعة بين أيدي

ويطمئن أنيس الصايغ القارة، بأن هدف المركز ليس إصدار أعمال تشويه سمعة القيادة التقليدية ، ولكن لا يمكنه في نفس الوقت تجاهل السرد الإيجابي الذي يمكن أن تطبعه الجماهير في فترات الكفاح القومي، كما أنه يرى من العمودي أن يبنى بأن الكتب التي نشرها المركز منذ تسميته قبل سنتين انتصرت على الصهيونية - وهي ملاحظة تكلف كيف أن الدراسات المتابعة بالصهيونية مقبولة سياسياً ، بينما الدراسات التي تتطرق إلى فلسطين والفلسطينيين تواجه نقداً من الانظمة العربية والاجزاب داخل المجتمع الفلسطيني نفسه.

كتاب عبد الوهاب الكيالي تاريخ فلسطين العميق (١٩٧٠) هو المثال الجرمي لهذا النوع من السرد السياسي للفترة الانتداب والأكثر قراحة . ويمتاز الكتاب بالبحث الجيد والأسلوب المباشر والتعليم الحكيم، ويدرس في كثير من الجاهات العربية ، وهو الكتاب الوحيد من نوعه الذي قامت بنشره وفرضه دار نشر بريطانية كبرى هي (كردم - مله).

والكيالي الذي سبق وأن تزعم الجبهة القومية الفلسطينية ، وكان عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، يميز الافتراض الرئيسي للقوميين العرب بخصوص تاريخ فلسطين، وكما هو متوقع بأنه يبدأ ببحث الحقبة الأولى من اليهود المستوطنين إلى فلسطين في أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، ويلى ذلك فصل عن جزائرية وتاريخ فلسطين منذ زمن الكنعانيين حتى فترة الانتداب ، وهنا تكمن المشكلة الرئيسية الأولى : فبينما هذه الرئيسي هو أن يثبت أن فلسطين تتبع العرب فإن الثلاثة عشر قرناً ما بين الفتح الإسلامي والوجهة الأولى من المستوطنين اليهود مقصورة على فترة واحدة، بينما أهدت الامبراطورية العشوائية ببساطة على أنها "رجال أوروبا الريفين" ، كما يتطوع خط تاريخ فلسطين العربي في الماضي والحاضر، حيث أن المحققين التاليين في التسلسل الزمني الكيالي، مما بحث مفصل لظهور الحركة الصهيونية في أوروبا ومطامع بريطانيا الاستعمارية.

الفصل الثاني "القارة العربية للصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى" يبدأ بتكرار المسودة التي أصبحت نموذجاً عن البنية الإدارية والسكانية للفلسطين في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، ويؤكد الزعماء عن خصائص الانقطاع العشوائي التي أصبحت سمعة موحدة لكل كتاب من هذا الصنف.

هذا الصنف هو الأكثر أهمية لأنه أفرج إلى حيز الضوء معلومات متنوعة واسعة غير سياسية، وبشكل تاريخ فلسطين خلال القرون التي سبقت الانتداب. إضافة إلى ذلك، اشتملت الكتب من هذا الصنف بأنها أول من استخدم التاريخ المتناقل، وسجلات المحكمة الشرعية، وأوراق العائلة، وثائق الوصف، وغيرها من المصادر المحلية. كما أنها أول من تناول الأصول المعينة للهجرة الفلسطينية الثقافية، من خلال توثيق الوعاقد والتقاليد والنواحي الأخرى للحياة اليهودية.

كثير من الكتاب الباعين انحدروا من عائلات عريقة، تميزت بانتباه فطري متين. وبناء عليه فمعلم مؤلفاتهم التاريخية لم تكن من فلسطين، بل اقتصرمت على مدنهم أو المناطق التي تقع فيها. ربما أن عائلاتهم صعدت إلى مراكز الشهرة في العهد العثماني، لذا فإن نظرتهم للحكم العثماني مخالفة لنظرة القوميين العرب والصهاينة. وبذلك، ويرون دراية، وضموا الأساس للتاريخ التمدني المستقبلي. وعلى سبيل المثال، يجادل إحصان نمر الذي يتحدث من عائلة قبايلية في نابلس، بأن القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، كان العصر الذهبي، لأن نابلس كانت مزدهرة ووحدها إبتوارها. وفي رايه، أن الإصلاحات العثمانية والحكم البريطاني أخطأ في إدخال التحديث. وعلى المكس تسيبا في الوفضي والنزاع الأهلي والركن. وتتضمن دراسته تاريخ جويل نابلس والبلقاء التي تقع في أريه مجلدات، والتي بدأتها في الثلاثينات، فترة من المدهمات عن كافة جوانب المجتمع النابلسي من السياسة إلى الفن المعماري. وباستخدام التاريخ المتناقل والوثائق العائلية ومعرفة واسعة في النسب والناس والأماكن والأحداث التي درست منذ عهد طويل، سون إحصان النمر التكريات الجماعية لجمل الجبل الذي شهد الفترة الانتقالية من العهد العثماني إلى الحكم البريطاني. ويظل كتابه المرجع الوحيد عن هذه المنطقة الهامة.

وكتاب القس أسعد منصور تاريخ الناصرة من العهد الأرميني إلى أيامنا الحاضرة (١٩٢٢) إضافة إلى كتب عازف الماروف تاريخ بئر السبع وقبائلها (١٩٢٤)، وتاريخ غزة (١٩٤٣)، والمفصل في تاريخ القدس (١٩٦١) هي جزء بسيط من عشرات كتب التاريخ عن المدن والقرى التي تم نشرها في العقود التالية الماضية. وكان لمدية القدس نصيب الأسد من هذه المؤلفات، نظرا لأهميتها الرمزية (٢٧)، وتلتها في ذلك المدن الساحلية يافا (٢٨) وحيفا (٢٩) كوزنها أول المدن التي أصبحت بومضة الاستيطان اليهودي. وقد ظهرت منذ ذلك الحين دراسات عديدة عن غزة (٣٠)، عكا (٣١)، الناصرة (٣٢)، نابلس (٣٣)، رام الله (٣٤)، بيت لحم (٣٥)، أريحا (٣٦)، بيرزيت (٣٧) ومدن وقسم

الوقت يتوجب إيضاح كيف يمكن لجمعية يركز على هذه القيم أن يساهم سلبا استثماريا واستقلاليا كما فعل.

لقد حاول معظم الكتاب حل التناقض بين المبادئ الملتزمة للحكومات بريطانيا والولايات المتحدة وتمسقاتها القبلية، بوضع اللوم في السياسات الخاطئة على أفراد، أو على البرني الصهيوني والتناقض المربح عن العوامل المادية طوية الأمه التي تحدد سياسات هاتين الدولتين المظنين والملاقة الاستنتاجية التي تربط إسرائيل والولايات المتحدة. ويصعب ذكر أي كتاب حول سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط يشير بشكل حاسم عن هذا الأسلوب التقليدي.

والأعمال القريبة مثل كتاب رشيد الخالدي: سياسة بريطانيا اتجاه سوريا وفلسطين ١٩٠٦ - ١٩١٤ : دراسة في الفترة السابقة لمراسلات حسين - مكماهون ، اتفاقات سايكس بيكو ، وإعلان بلنود (١٩٨٠).

أضحت اعتسما أول للتناقضات الاختلافية، وركزت على تمثيل رؤيتنا للمعالم السياسية التي تشكلت العهد النقري لجميع موانع التاريخ عن فلسطين في القرن العشرين. وبينما يعدل هذا العمل بعض التصورات الخاطئة، ويضع القارئ، على أرض أكثر ثباتا، إلا أنه يستقر في التركيز التقليدي على البنية القوية - أي التاريخ الدبلوماسي والسياسي والكوي.

*

وبحسب ذلك فإنه في إطار المبركة المهمة لكسب الرأي العام الأمريكي، تصمد هذا الصنف الصلة لتحتوي النزاعات الصهيونية حول الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي ، وانتخب في الفترة الأخيرة موقفا موهوبا للفتح العوازل الأساسية لسياسات الحكومة الإسرائيلية ورفض نظرة فلسطينية إيجابية. أمام انكار تاريخهم والإشارة إليهم 'بالجموع غير اليهودي' رغم أنهم يشكلون الاغلبية، قام كثير من الفلسطينيين الناقل لأنفسهم بالبحث عن كل مله من شأنها أن تثبت هويتهم وتقيم الدليل على عروية فلسطين. ونجم عن ذلك ظهور الصنف الثالث من التاريخ 'التاكيد على الهوية'.

المارك (ليس بالضرورة العرب) لاكتشاف فلسطين المشاطية كان حق هذا التاريخ حليف نظرائهم الاسرائيليين. حيث إن الدراسات الاسرائيلية في الوقت الحاضر تشكل أساسا لا غنى عنه لكل من يسمى لإجابة عن السؤالين: ما هي فلسطين؟ ومن هم الفلسطينيون؟

وتعود الأسباب في ذلك إلى اختلاف برامج الشيمين في الفترة التي طلت عام ١٩٤٨ والطريف المرضية للطرفين. مرة أخرى، كانت الحركة غير متكاتفه. فقد وجدت الغالبية الساحقة من المثقفين الفلسطينيين نفسها خارج فلسطين في أعقاب حرب ١٩٤٨ و ١٩٦٧. فالتقدم على الحياة في المنفى، والاشتغال بأحد الميخنة الوجودية، وسموية الوصول إلى المصادر المحلية الرئيسية، وغياب المؤسسات الأكاديمية الوطنية، ضاعف في تقديمها الانهماك في إعادة بناء حركة قومية جديدة، عدا عن القدر الابدولوجي التزايد القومي العربية التي أعطل هذه الفترة كلها.

في حين أقام الصهاينة من خلال مهاراتهم التنظيمية والتمويلية القوية نظاما جيدا من المؤسسات الأكاديمية سابقا لعام ١٩٤٨، وجنبا إليها أعادوا متتوعة من المؤرخين اليهوديين، وكثيرهم من الوصول غير المحدود للمصادر المحلية. والأهم في الأمر، هو إدراكهم بأن فهم التراث الوطني كان أمرا في غاية الأهمية في بناء دولتهم الكاملة.

وكان بين المهمات الملحة في عملية بناء الدولة على سبيل المثال، تغيير النظام القديم بالنسبة للعلاقات الاراضي. وكان هذا موضوع الدراسة المحددة نظام الاراضي في فلسطين: التاريخ والهيك (١٩٤٨) للكاتب انزام جرانوت (٢٩). وكان جرانوت المدير الإداري المستقرو اليهودي القومي والتعبير في اتباع الاراضي الصهاينة. وتتل دراسته الملحة وتنظيم الاراضي من منتصف القرن التاسع عشر وما بعد، مرجعا لا غنى عنه للمهتين في تعريف الهيزات الرئيسية للجمعية والاقتصاد الفلسطيني. ووكلمات جرانوت:

"ومعرفة الاحوال التي كانت سائدة قبل قيام اسرائيل أمر حيوي لكل من يهتم بتاريخ بلدنا، وبسبب ذلك لجميع المهتمين باستقلالها - الرجل الذي يعمل للسلامة في تطوير اقتصاد اسرائيل، والفرع الذي يعمل على وضع قانون جديد

أخرى عديدة (٢٨).

وفي قمة هذه الدراسات المبكرة والاكبر شيوعا عند العامة، تقف الجغرافيا التاريخية المصنعة، التي تقع في ثمانية مجالات بلونا فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٦٦ للزائف مصطفى مراد الدباغ. ولا يتذكر هذا العمل جوا نون أن بحركة في عملية ترتيب كل جدول رطل وكان مقس - بحر قيا كل شبر في الاراضي الفلسطينية في محارلة وثبات عالمها العربي.

والحقبة الرئيسية في هذا الصنف من التاريخ تتمثل في طوح شموليته الزائفة، وبله في التوثيق، والغالبية التي يعرض بها الماضي، وكثير من الكتب هي إنتاج يقسم بالهواية تم جلبها على حساب المؤلف، وتعود بالاقادة على عالم الاجتماع أكثر من المؤرخ. وحتى أحسن هذه الكتب تتراكم فيها الملغصات بشكل غير منظم وغير مثير، نون اعتبار السياق التاريخي أو التغيير مع مرور الزمن. وكان كلما زادت الملغصات بين الصفحات كلما زاد وزن الحقبة.

وما زال هذا الاتجاه مستمرا بقوة في يومنا هذا، مع أنه يتخذ صبغة مهذبة ويختل في الكتب السنوية، ومضاربع التوثيق لكافة الأمور من قرارات الأمم المتحدة إلى التاريخ الصهيونية. بينما تعود هذه الجدلجات بالاقادة بطريقها الخاص، إلا أن المشكلة الرئيسية التي يواجهها المؤرخون الفلسطينيون اليوم لا تكمن في إيجاد الدليل الذي يشهد على وجودهم كعصب، بل في المبادرة إلى زججه تاريخهم.

إن تعجيب الماضي الضائع في صنف " التاكيد على الهوية " يتم عن فعل مماكس لحرمان تنظيم. ولهذا استغله العلماء الامولون المسلمون الذين يجادلون بأن الطابع الإسلامي الحكم لمضاني ضمن المدل والامن الروحي والازدهار للعموب التي كانت تحت سيطرته. وكما فعل استشرقون، يعرض العلماء والاصحابون، الفترة المعشانية كترج مثالي، إلا أن كل شيء، يصبح سدا له. وماضيع أن هذه الراء التضادة هي جاذبان لنفس الأمة، وبفقط عن طريق قراءة نقدية وثقات "التاكيد على الهوية" يمكن أن توفّر أساسا التاريخ التصديقي.

ومع أن المؤرخين الفلسطينيين كانوا السائقين في " التاكيد على الهوية " إلا أن الناصر في

(١٩١٣) مع أن ملامته عن تجارة القطن وتطور ظاهر العمر واحد باشا الجزائر تتناقض المقدمات التي تبنت عليها .

ومن المهمات الأخرى التي واجهت النوراة الحديثة كيفية التعامل مع الاقضية الفلسطينية الفسحة داخل حدودها ، ومع النول العربية المراجعة لا سيما مصر وسوريا . كما ان المسائل المتعلقة بالنظام الإداري والمالي الفلسطيني ، والاتساق السكانية ، وخاصة في القرن التاسع عشر أصبحت أمورا ذات متعلق مهمة مواجهة الآخر (٤٥) .

وفي مواجهة هذه القضايا، كان العلماء الاسرائيليون اول من استخدم الازيفيق الفلسطيني المركزي الذي تم فتحه الباحثين في أواخر الأربعينات بفرض دراسة فلسطين . وكان برنارد لويس وارييل هيد الراندين في هذا المقام، وتلاما على النور موشى ماعوز، امنون كوهين، حاييم جيزير، وجيسن من الباحثين الاسرائيليين الاخرين . ولم تول أصالهم اهتماما للقوى الحركية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الفلسطيني، وإنما ركزت بشكل رئيسي على الانظمة الحكومية والارادية إضافة إلى السكان والأحداث السياسية (٤٦) . واتبع معظم المؤرخين الفلسطينيين والنرب نفس الأسلوب (٤٧) . ونتيجة لذلك، فإن ما نعرف عن الأحوال الاجتماعية - الاقتصادية الفلسطينية التاريخية للتلاحح والتجار والنساء والعمال والمناصر الأخرى من الاقضية الصامحة للشعب الفلسطيني يكاد يكن لا شيء..

وقبل حواراي عقدين من الزمن، بدأ العلماء الاسرائيليون يهتمون بشكل جدي المصادر الفلسطينية المحلية، مثل سجلات الحاكم الشرعية، وذلك لإلقاء النور على الجايات اليهودية في فلسطين إبان الحكم الفلسطيني، وبشكل خاص في القدس، صفد، طبريا، والخليل (٤٨) . ومع أن هذه الجايات كانت تشكل جزءا من السكان ككل، فمنع نعرف عنها أكثر من أي قطاع آخر عاش في فلسطين في الفترة المشائية.

وباختصار، فإن السيطرة الاسرائيلية على هذا الحقل المهم، خدمت برامجهم الخاصة ووضعت الأسس والأطر التحليلية لتفهم من العلماء. ويجب التأكيد هنا بأن المستوى المهني الرابع والامل الرائد بمصادر جديدة، فتحت آفاقا جديدة للعلماء الناشئين. وسكنون غلظة فائدة اذا صرف النظر

الاراضي، وكل من يشارك في تكوين الاقتصاد الزراعي النوراة الحديثة. كل هؤلاء عليهم اكتشاف التطورات المبكرة وتتبع الجذور في الماضي" (٤٠)

وكانت هناك مهمة أخرى تطلت في المل على إضفاء الشرعية على برنامج الاستيطان وذلك بمقاربة اسرائيل الحديثة بفلسطين المتخلة والهملة . وبين مسؤول حكومي هو د . ه . ك . اميران بروضح مقنع في سلسلة من ثلاث مقالات بعنوان " نمط الاستيطان في فلسطين " أمية التاملق الجبلية كعلم للاستقرار وممارسة الاستيطان عبر التاريخ . ويقارن هذه المناطق بالسهول الساحلية التي تطلت فيها أسماء الاستيطان، رغم أن أراضيا أكثر خصوبة وملائمة للحياة الزراعية . وتعليه لهذا الوضع ليس مبنيا على دراسة للمجتمع الفلسطيني، بل على حججه أصبحت أمورا موحدا في الدراسات الصهيونية التي تلت عن فلسطين في الفترة المشائية وما : " غياب الامن " و " التثقل الفلسطيني " (٤١) . واستنتجته بأنه " ليست الاراضي هي السببة، وإنما الناس والحكميات التي تشظتها ولم تتم باستغلالها على الوجه الصحيح " يؤكد على النظرية بأن فلسطين في الفترة المشائية كانت بلدا مهملة . وتم إتقانها بواسطة الاستعمار الصهيوني .

ومعيرة فلسطين كخصية للاحتياط المشائي والتي جاءت بدرايات تحديثها نتيجة لثورات خارجية - بدأ بالقرن المصري عام ١٨٣١ . وموردا بالاصلاحات المشائية، وانتهاء بالاستيطان اليهودي - أخذت شكلا مفسلا في كتاب موشى ماعوز الكلاسيكي الاصلاحات المشائية في سوريا وفلسطين (١٩٦٨) . ومرة أخرى، الحقبة الرئيسية في غياب الامن التي عزاما لازمة عوامل : جنح الاشارات، ونهب البور والنزاع العرقي، إضافة إلى غياب الاطفال العامة (٤٢) .

وضمحت هذه الموجة ثقلة بتقله ليس في متناول هذا المقال . ولكن يجب الإيضاح بأن هذه النطاق مبنية على آراء المستشرقين القائمة منذ أمد طويل، ومروضة في كتاب جيب وورين، المجتمع الإسلامي والعرب، وبناء عليه ويرون دليل ان حتى ملاحظة، يزعم ماعوز بقعة كافية في المقدمة لكاتبه بأن القانون والنظام الذي فرضه المصريون في الثلاثينات من القرن التاسع عشر " وضع نهاية للقرن من الفوضى والتخلف، وفتح مسرعا جديدا للاستقرار والتحديث " (٤٤) . وكانت هذه النظرية مشتركة بحيث أن امنون كوهين ذكر نظرية الاضطهاد كامل لكاتبه فلسطين في القرن الثامن عشر

وأخيرا ، إذا تسال نفس الطلبة لماذا استغرق ذلك وقتا طويلا من الزمن؟ فيرجى من الاساتذة ليس فقط بحث العلاقات الشخصية بين عائلتي الحسيني والنفاثيني، والجل فيما اذا كان الانشقاق الحزبي نزعة متفصلة في العقل الفلسطيني، بل أيضا أن يبينوا إلى الدراسات حول التكوين الطبقي للجمع الفلسطيني ، وأماط العلاقات بين الطبقات الاجتماعية والأساس المادي للطبقة الخيرية الحاكمة.

هذه الدراسات ما تزال تنتظر الكتابة ، ولكي يحدث ذلك، فإن على المؤرخين تطوير إطار جديد للتفصيل من شأنه أن :

(١) يتحدى مفاهيم الكتابة الصهيونية والجمعية العربية من جهة، ويرفض عرض الماضي بشكل مثالي من جهة أخرى.

(٢) يركز على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للفلاحين، العمال، النساء، التجار وعمالص اخرى للعائلي الصالحة تاريخيا بدلا من إنتاج الروايات السياسية المتكررة.

(٣) يمرض تطورات القرن العشرين في سياق التكوين الاجتماعي وإيقاع التغيير خلال الفترة المشاطئة - التي يجب أن تحدد حسب واقعها وليس بحكم مسبق على أنها نظام يتصف بالإحباط.

(٤) يستخدم مصادر محلية مثل سجلات المحكمة الشرعية، التاريخ المتعلق، الأوراق الماثلية، مما يظل غير مستقل إلى حد كبير، ويحتوي على ثروة من الملومات الاجتماعية والاقتصادية والتأنيق من المجتمع الفلسطيني بكامله.

إن التقييم النقدي لكتابة تاريخ فلسطين على مدى القرن الماضي موضوع شاسع ومتقضي، وهذا المقال لا يطبع لمعالجة شاملة أو وضع خطة مثل هذا المشروع، وإنما يعرض نقاشا حول السؤال: ما هي الافتراضات الأيديولوجية والاحتمالات التاريخية التي حددت معالم البحث في تاريخ فلسطين والفلسطينيين؟

وكما أرحو أن أكون قد بينت أن ما نرفقه، وأهم من ذلك ما نجعله، هو إلى حد كبير نتيجة لسيطرة نماذج على هذا المشروع، كان من شأنها أن تعامل فلسطين والفلسطينيين ككفيا، تتأثر بموامل خارجية وليس كقوى فاعلة. كما بينت أن هذه النماذج طورها كتاب مستشرقون ومهاجرة

ن هذه الأعمال كما يحتفل أن يفعل البعض، وفي الواقع أن الجامعات الاسرائيلية اتجهت المؤرخين تعميليين الحاصين بها مثل حاييم جبير الذي تحدى كثيرا من الافتراضات الوحيدة المتفلة بتطور تاريخ الفلسطيني، ومع أنه يظل في إطار نظرية التحديث، إلا أن كتابه الحكم المشاطني في القدس ١٨٩٠ - ١٩١٤، على سبيل المثال، يجادل بوضوح أن النمو الاقتصادي في القرن التاسع عشر كان مستند في تعليمه على السكان الفلسطينيين، وأن دور اليهود في تأسيس دولة حديثة واقتصاد كان امفيا. كما أنه يبيّن بأن المصدرة عن غياب القانون وتفتشي الفساد وغياب الأمن والفراغ السكاني يرد صحيحة.

وقد نشر الكسندر شولس وعدد من العلماء الأوربيين والأتراك أعمالا بنفس هذا اللفظ قبل بعد كتاب جبير (٤٩). وفي الواقع أنه منذ أوائل السبعينات، تفرقت نظريات المستشرقين بحجات متزايدة، واستمر عدد الأعمال التعيلية عن الحكم المشاطني ينمو بشكل ثابت (٥٠). وخلال لعقنين القادمين، اذا استمر هذا النهج، فإنه سيكون هناك توجه رئيسي جديد في ميدان تاريخ لشرق الأوسط، من شأنه أن يضع التعميلات التي سادت استنتاجيات ترجمة التاريخ التبعة حتى لان موضوع اختبار شديد.

وأماي أنه عندما يسأل الطلبة في دولة فلسطين المستقبلي أساتذة التاريخ عن السبب في لشكل الذي اتخذته نواتهم أن يتحصوا بالرجوع ليس فقط للكتب عن الاستنتاجية المسكورة أو لمعامات السرية بين الملك عبد الله والرؤساء، المهاجرة، بل أيضا لامعال عن أنفسي اللاجين في لمناطق الجبلية، وأماما التوطن، وتقليد الحكم الذاتي، وعدد من الموامل طويلة الأمد التي تفسر لسبب في استمرار جبال الجليل ونابلس والقدس والخليل في غابيتها عروبة بالرغم من تعامل سياسة التهويد والاستيطان لعشرات السنين.

ويبقى الامعية، عندما يتبرح لهؤلاء الطلبة أن الفلسطينيين رغم تشردهم في كل مكان استطاعوا إعادة بناء حركتهم القومية وأحراز استقلالهم بعد حادثة ١٩٤٨، عليهم أن يناقشوا ليس فقط الماظمة ضد الصهيونية، وانتشار القومية العربية كجزء للقومية الفلسطينية، بل أيضا تقديرات لتجربة الجماعة التاريخية، وأاية تقصامن الجمع التي تم تطويرها وانفراستها قبل قدمم المساهية مراحل.

ملاحظات

- (١) ابراهيم أبو لغد في مقال مراجعة يجادل بأن التجارب القومية التاريخية المختلفة للفلسطينيين والاسرائيليين في متعلق القيم والمعتقدات والمواقف يجعل من المستحيل تسوية القضايا التي هي موضع جدل. *Journal of Palestine Studies* (Winter, 1989) pp 119-127
- (٢) من الروايات التاريخية المتضمنة في كتيبات دليل المسافر الشائعة الاستعمال والتي تهدف إلى تعريف القارئ بالسكان الأصليين تعاني من نفس المشكلة. ونسخة بإيديكر *A : Palestine and Syria Handbook for Travellers* على سبيل المثال تركز بصفة رئيسية على الفترات التوراتية لليهود والمسيحيين والحروب الصليبية. أما الفترة الفاصلة بينها فقد وصفت ببساطة "شهد متواصل للحروب واراقة الدماء مصحوبة بسلسلة متداخلة من النزاعات المهلكة والمؤامرات وجرائم القتل *Leipsing : Kart Baedeker publishers, 1912, pp Lxxxii - iii.*
- (٣) New York : Harper and Row, 1984
- (٤) وعمل أكثر جدية ولكن بنفس المواضيع هو كتاب اريه افنيري : *The Claims of Dispossession: Jewish Land Settlement and the Arabs, 1878 - 1948* (New Brunswick, NJ : Transaction Books 1984).
- (٥) وبحث مفصل عن فضيحة Joan Peters انظر
- Edward Said , " Conspiracy of Praise "
- Norman G. Finkelstein, " Disinformation and the Palestine Question : The Not- So Strange Case of Joan Peters' *From Time Immemorial*
- Edward Said & Christopher Hitchens (eds) *Blaming the Victims; Spurious Scholarship and the Palestine question* (London, New York: Verso, 1988 pp- 23-31 and 33-69 respectively).
- (٦) أنظر مقدمته لمجموعته
From Haven to Conquest : Readings in Zionism and the Palestine Problem Until 1948 (بيروت ١٩٧١)
- (٧) *Palestine* (London: Ernest Bern Lt, 1934) p. 40
- (٨) هو الإسم الذي كان يطلق على الجالية اليهودية في فلسطين قبل عام ١٩٤٨

وتبناها إلى حد كبير نظراؤهم من الكتاب الفلسطينيين والعرب. حيث إن التقاليد التاريخية الفلسطينية والصهيونية تبدو غير متلائمة فقط على السطح ، أما في العمق فكلا التقليدين يشاركان إلى درجة كبيرة في نظرة مختزلة للفترة العثمانية ، وكلاهما يفغل التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للشعب الفلسطيني.

وعليه فإن الصفة الغالبة للكتابة عن تاريخ فلسطين هي الإنكار الذي ينسجم مع وضع الفلسطينيين المادي، والذي حدد في البداية " يغير اليهود " ومن ثم " باللجنين ". ولا تزال جهود المؤرخين الفكرية المنظمة والثابتة للتغلب على هذه النماذج المسيطرة في طور الجنيني، لكنها في طريقها إلى النضوج في المستقبل القريب.

وهذه النظرة المتقائلة مبنية على الإنجازات الواقعية للشعب الفلسطيني في كفاحه الطويل لتلحق حق تقرير المصير. فعودة ظهور الحركة القومية الفلسطينية في أعقاب مآسي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ إضافة إلى الانتفاضة، وفرت الأساس التاريخي لإعادة تقييم الجدل الفكري حول التاريخ الفلسطيني. وبما أن الشعب الفلسطيني استمر في رفض إنكاره بعناد وثبات، فإن المؤرخين من كل الجنسيات والمذاهب السياسية سوف يضطرون في النهاية لبدء بحث جدي في المسألتين الأساسيتين المتمثلتين في : ما هي فلسطين ؟ ومن هم الفلسطينيون ؟

ترجمة عمر عثمان

- (٩) انظر على سبيل المثال كتاب رفيق التميمي ومحمد بهجت ولاية بيروت (بيروت ١٩١٦).
- (١٠) معهد دراسات فلسطين (بيروت ، واشنطن ، باريس) ، ومركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية (بيروت) وجمعية الدراسات العربية (القدس) ربما كانت المؤسسات الثلاث الأكثر شهرة المحمولة من مصادر فلسطينية وعربية. وربما كان المصطلح مؤسسة فكرية مضللا حيث ان جزءا كبيرا من ميزانيتها يصرف على التوثيق (كتب سنوية وما شابهها) وجزءا قليلا نسبيا على مشاريع ابحاث اصلية. اي انها تجمع بين مهام المكاتب الحكومية ومراكز الأبحاث.
- (١١) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية (يافا : ١٩٣٧)
- (١٢) القضية الفلسطينية : تحليل ونقد (يافا : ١٩٣٧)
- (١٣) الانتداب البريطاني باطل ومحل (١٩٣٦)
- (١٤) انظر على سبيل المثال المؤامرة الكبرى واغتيال فلسطين (١٩٥٥) ، وفلسطين عبر ستهن عاما (مجلدان ، بيروت : ١٩٧١ ، ١٩٧٣)
- (١٥) على سبيل المثال : حول الحركة العربية الحديثة (١٩٥٠) ، ومأساة فلسطين (١٩٦٠)
- (١٦) الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (القاهرة : ١٩٦٧)
- (١٧) القضية الفلسطينية (١٩٥٦)
- (١٨) انظر اسفل
- (١٩) انظر اسفل
- (٢٠) الأخير مخطوطة غير منشورة في مكتبة الخالدي في القدس.
- (٢١) ما تزال فترة الانتداب المفضلة الغالبة للأعمال الجديدة من هذا النوع ، غير ان ظهور المقاومة الفلسطينية في منتصف الستينات ، والغزو الاسرائيلي لبيروت عام ١٩٨٢ ، والانتفاضة الحالية المستمرة تفرز بشكل متزايد اعمالا جديدة تشهد على مقدرة الفلسطينيين على استعادة تاريخهم في فترات إلا ان الفترات التي توسطت ذلك وبالأخص الفترة ١٩٣٩ - ١٩٦٥ تظل الى درجة كبيرة غير خاضعة للفحص فيما عدا استثناءات جزئية لكتاب غير

- فلسطينيين وتجادل Laurie Brand في كتابها *Palestinians and the Arab World: In Search of a state* (1988) بأن تأسس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وظهور المقاومة الفلسطينية بعد عام ١٩٦٧ كانا نتيجة لعودة ظهور الحركة القومية وليس بداية لها. كما أن Pamela Ann Smith كانت من الأوائل لتناقش في كتابها *Palestine and the 1876 - 1983* بشيء من التفصيل الأساسي المادي لعودة ظهور (الحركة القومية) وتوجز بشكل منهجي التطورات التاريخية في هذه الفترة التي لم تخضع للدراسة من منظار طبقي .
- (٢٢) باستثناء كتاب محمود يزيك الهجرة العربية إلى حيفا في زمن الانتداب : دراسة تاريخية اقتصادية ، سكانية واجتماعية (الناصره : ١٩٨٨)
- (٢٣) بيروت : مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، سلسلة كتب فلسطينية ، رقم ٦ ، ١٩٦٧
- (٢٤) تنسب القومية العربية إلى أصول فرنسية. أي أن الكيالي يحنو حنو جورج انطونيس في كتابه *The Arab Awakening* (١٩٣٨) ويجادل بأن غزوة نابليون لمصر عام ١٧٩٨ تسببت في يقظة الثقافة العربية بعد قرون من السبات العميق.
- (٢٥) تاريخ فلسطين الحديث ص ٤٥.
- (٢٦) من الأمثلة على ذلك مقدمات وايد الخالدي البارعة لكتابه *From Haven to Conquest 1971 Before their Diaspora a Photographic History, of the Palestinians, 1867-1948* (1984)
- الذين يغفلان إلى درجة كبيرة الفترة العشمانية ويعطيان المكان الأكبر للصهيونية والسياسة البريطانية.
- (٢٧) على سبيل المثال خليل بيرس تاريخ القدس (١٩٢٢) ، محمد أديب العامري القدس العربية (١٩٧١) ، اسحق موسى الحسيني عروية بيت المقدس (١٩٦٧) ، احمد سامح الخالدي تاريخ بيت المقدس (غير منشور)
- (٢٨) على سبيل المثال أ.س فرمرجي " نظرة في تاريخ يافا " المشروق ٧١ رقم ١٠ ، ١١ ، (١٩٢٨).

- (٤١) يشكل أدق عدم قدرة الفلسطينيين والمثاليين التعامل مع الملايا " ونهب " البئر
(٤٢) Israel Exploration Journal , (111 : 4 (1953), p.260)
(٤٣) Moshe Ma'oz, Ottoman Reform in Syria and Palestine
(Clarendon Press : Oxford , 1968) pp. 8-10.
اقتباس واحد كافي :
- "(كان البئر) السبب الرئيسي في تدمير الريف وما نتج عنه من خراب في الزراعة والتجارة. هؤلاء الرعاة الأتداء غزا الحافظات السورية ، سلبوا القوافل والمسافرين على الطرقات وألقوا مساحات كبيرة من الأرض المزروعة ، وحتى أنهم تجرأوا على الإغارة على القرى الواقعة في ضواحي المدن الكبرى" (ص ٩ اضافة في التأكيد).
- (٤٤) نفس المصدر ، ص ٥٥.
- (٤٥) كثير من المؤرخين الذين كتبوا في هذه المواضيع عملا بصفة رسمية كمرشدتين في الشؤون الريفية ومستشارين في تشكيل السياسة الخارجية.
- (٤٦) ان تنظيم أمم مجموعة في هذا الحقل وهي بعنوان دراسات حول فلسطين في الفترة المشاطية نو دلائل حيث يتناول الجزء الأول الجغرافيا والسكان (٦ مقالات) ، ويتناقش الجزء الثاني الجايات اليهودية (٨ مقالات) ، ويركز الجزء الثالث على الامور السياسية والادارية في القرن التاسع عشر (٦ مقالات) ، ويغطي الجزء الرابع النشاطات الخارجية" (٧ مقالات) ، ويبحث الجزء الخامس في أثر الثقافة والتكنولوجيا الغربية على المجتمع التقليدي في القرن التاسع عشر (٤ مقالات) ، وأخيرا يركز الجزء السادس على المسار الارشيفية (٩ مقالات).
- (٤٧) على سبيل المثال انظر عبد الكريم احمد التقسيم الاداري لسوريا (القاهرة: ١٩٥١)، عبد الكريم غرابية سوريا في القرن التاسع عشر (القاهرة: ١٩٦١)، عبد العزيز عوزن الادارة المشاطية في ولاية سوريا (القاهرة: ١٩٦١) ، عدنان البخت The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century(London: 1972) وعبد الكريم رائق العرب والمثاليون ١٥١٦-١٩١٦ (دمشق: ١٩٧٤) ، بهجت حسين صبري لواء القدس تحت الحكم المشاطي ١٨٤٠ - ١٨٧٢ (رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة عين شمس ، القاهرة: ١٩٧٢)

- (٢٩) على سبيل المثال جميل السحي تاريخ حيفا (حيفا : ١٩٢٢)
(٣٠) محمد علي عمالة نياحة غزة في العهد الملكي ، سليم عرفات المينهي غزة وعظامها (القاهرة: ١٩٨٧)
(٣١) ناجي حبيب مخلد عكا وقراها من اقدم الازمنة إلى الوقت الحاضر (عكا : ١٩٧٩)
(٣٢) بالإضافة إلى عمل منصور انظر رد حسين عمر حمادة تاريخ الناصرة وقضائها (عمان : ١٩٨٢) أيضا محمد عبد القادر كناعة تاريخ الناصرة (الناصرة: ١٩٦٤).
(٣٣) عارف عبدالله مدينة نابلس (رسالة ماجستير غير منشورة ، دمشق ١٩٦٤) ، اكرم الرينبي نابلس في القرن التاسع عشر (عمان : ١٩٧٨) ، سميد بيشاوي نابلس ودورها في الصراع الاسلامي - الصليبي ١٠٩٩ - ١٢٩١ م / ٤٩٢ - ٦٩٠هـ (رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الاسكندرية ١٩٨٤). مسلم الحل قصة مدينة نابلس (تونس)
- (٣٤) على سبيل المثال يوسف قنوره تاريخ مدينة رام الله (نيويورك : ١٩٥٤)
(٣٥) على سبيل المثال حنا عبدالله جثمان جولة في تاريخ بيت لحم من اقدم الازمنة حتى اليوم (القدس : ١٩٨٤).
- (٣٦) فوزية شحادة ارجبا : دراسة حضارية (١٩٨٥) هذا الكتاب اصلا رسالة ماجستير قدمت لجامعة مار يوسف - بيروت.
- (٣٧) على سبيل المثال تاريخ عشيرة المرائكة في بيزنيت لواء شحادة خردوي (مخطوطة غير منشورة كتبت في النصف الأول من هذا القرن) ، و تاريخ مدينة بيزنيت لواءه موسى عوش (بيزنيت : ١٩٨٧).
- (٣٨) على سبيل المثال قرية النابية للمواف موسى عبد السلام فريب (عمان : ١٩٨٥).
- (٣٩) نشرت النسخة الانجليزية عام ١٩٥٢ في لندن (Byre and Spottwoode Press)
(٤٠) نفس المصدر ص ٨

ديناميات التنمية البديلة

نشوء المنظمات "الجماهيرية" في الأرض المحتلة وتطورها

سمير حليلا

مجموعة التنمية الاقتصادية - القدس

أولاً: الإطار المنهجي

المقدمة

شكلت انتفاضة الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة عام ١٩٨٧ معلماً تاريخياً مهماً في مسيرة نضال الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية المعاصرة الحديثة. باتساعها ودرجة تنظيمها وقدرتها على الاستمرار لسنوات عديدة، رغم الضربات الكثيرة التي وجهت إليها على الصعيد العسكري والاقتصادي. وبالرغم من بروز آراء مختلفة في تفسير دوافع نشوء الانتفاضة وشروطها الجيدة، إلا أن معظم الخبراء السياسيين اتفقوا على أن عنصر التنظيم كان العنصر الحاسم في استمرارها بهذه الفعالية والعنفوان. وقد وجهت ظاهرة الاستمرارية الأنظار من جديد نحو البنى التحتية للحركة الوطنية الفلسطينية في الأراضي المحتلة، وتعبيراتها المختلفة في شتى المجالات الزراعية والصحية والنسوية، فيما يسمى بالمنظمات أو الأطر الجماهيرية. وشهدت سنوات السبعينات وأوائل الثمانينات حركات جماهيرية نشيطة، يمكن اعتبارها انتفاضات صغيرة، إلا أنها كانت انتفاضات مؤقتة وموجهة ضد قضية محددة كاتفاقية كامب ديفيد وإنشاء الإدارات المدنية. ولم تتشكل قياداتها في ذلك الوقت من أطر واسعة الانتشار، بل كانت (سواء الجبهة الوطنية عام ٧٣ أو لجنة التوجيه الوطني عام ١٩٧٨) ذات طابع نخبوي - مدني، في ظل غياب بنية تحتية منظمة تنظم العلاقة بين الجمهور العريض والنخبة السياسية. وفي الحالتين، كان اعتقال قيادات الجبهة أو لجنة التوجيه وإبعادها كافياً لإضعاف الانتفاضة المحددة. ولكنه لم يكن كافياً في الانتفاضة الحالية، بالرغم من اعتقال وإبعاد وجرح ما يزيد عن مئة ألف فلسطيني خلال العامين المنصرمين. ويبدو أن خبرات الأطر والمنظمات الجماهيرية العاملة في الأرض المحتلة ونضج تشكلها، واتساع انتشارها على الصعيد الجماهيري والمهني كان مترافقاً مع الوحدة الوطنية

(٤٨) امنون كوهين من الأوائل الذين فعلوا ذلك وعمله الرئيسي في هذا المجال :
Jewish Life under Islam : Jerusalem in the Sixteenth Century
(Cambridge : Harvard University Press, 1984)

(٤٩) كتاب الكسندر سكولتش (Alexander Scholch)
Palastine in Umbruch 1856 - 1882 Untersuchungen Zur
Wirtschaftlicher Und Sozio - Politischen Entwicklung.

(تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ - ١٨٨٢ : دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي
والسياسي ، عمان ، الجامعة الاردنية ١٩٨٨)

(٥٠) إن نشر ثلاثة اعداد من Review of Middle East Studies
من جماعة أعمم في أوائل السبعينات شكل اول تحدي جماعي ومنهجي لدراسات المستشرقين
الرئيسية . وتحتوي المجموعة The Ottoman Empire and the World
Economy edited by Huri Islamoglu - Inan (Cambridge : 1987)

مقالات لكثير من العلماء الجدد الذين يعملون في هذا الحقل.